وصايا لقمان التربوية

قال ابن كثير : اختلف السلف في لقمان عليه السلام : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الاكثرون على الثاني ( تفسير القرآن العظيم ج 6 ، صـــ333 ) قال تعالى : " وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ( لقمان : 12 ) ، والذي اجمع عليه العلماء ، أنه كان حكيماً بحكمة الله موصوفاً بالحكمة ، وهي الاصابة في الامور ، فهي تقتضي العلم النافع والعمل بهذا العلم

وقد بدأ الله تبارك وتعالى بالتعريف بلقمان ووصفة بالحكمة والصلاح قبل الخوض في وصاياه لابنه لاشعار القاريء باهمية هذه الوصايا اللقمانية فصاحبها ذو حكمة بالغة وعقل بالغ راجح ولذلك ذكرها الله فيكتابه ليعمل بها المسلمون حتى تقوم الساعة فليست من قبيل السرد حاشا لله ذلك

وقد استعمل لقمان في هذا الموقف التربوي اسلوب الوعظ وهو اسلوب يتمثل في التذكير بوجوه الخير والزجر المقترن بالتخويف مو وجوه البشر بأسلوب رقيق تغمره الرحمة يشعر معه الموعوظ خوف الواعظ عليه واشفاقه عليه رحمة به فتلمس الموعظة شغاف قلبه وتستقر في وجدانه لذلك يعد هذا الاسلوب الذي استخدمه ذلك الرجل الموصوف من قبل الله بالحكمة من افضل واحكم الاساليب التي تستخدم في التوجيه والارشاد قديماً وحديثاً لان الانسان وخاصة الصغير اذا احس حرص من يرشده عليه واشفاقه به تمسك بمواعظه وتوجيهاته بحيث تصبح اتجاهاً من اتجاهاته وعادة من عاداته

وهذه الوصايا هي عبارة عن تسع مواعظ جمعن في طياتها جميع مظاهر التربية كما ان كل موعظة فيها نقد من الاصول التربوية اتي يجب ان يكتسبها الاولاد واذا اخل المربي بواحدة منها ولم يكتسبها الصبي اختل ميزان التربية عند الصبي وبان تأثيرها عليه بحيث يلاحظ عليه هذا النقص فانتبه ايها المربي الى هذه الوصايا واحرص عليها اشد الحرص فالمولى تبارك وتعالى لم يهيء لها سورة من سور القرآن ولم يقدم لقائلها سدى فانتبه وتيقظ

الوصية الأولى :

قال تعالى : " يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " ( لقمان : 13 ) هي الأولى ، فهي الأولى والأهم ، في أولويات المربي الراشد العاقل ، فهي الغاية التي لها خلق الانسان ، وهي وظيفته الأساسية ، قال تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " ( الذاريات : 56 ) والذي ينشا على عبادة غير الله فقد خسر دنياه وآخرته قضى عمره في هم وغم وضيق وتعاسة قال الله تعالى : " ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ( 125 : الانعام )

لذلك أكد لقمان وصيته بعدة مؤكدات ليشعر ابنه بأهميتها وخطورتها منها قوله ( يا بني ) استرقاقاً واستعطافاً له لجذب انتباه لما سيلقى عليه فظلاً عن تقديم النهي وتصدره للوصية وفصل اداته ، فضلاً عن استخدام اداة التوكيد ( إن ) فضلاً عن اللام في قوله " لظلم ) فضلاً عن ايراده سبب النهي وعلته فضلاً عن تعظيم التهي وتهويله وكان ذلك كله لما يعلمه ذلك الرجل الثاقب النظر من خطورة الشرك .

الوصية الثاني :

قال تعالى " ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه ....... " ( لقمان : 14 ) وقرن لقمان بين هذه الوصية وبين عبادة الله وعدم الشرك به وكثيراً ما يقرن الله سبحانه وتعالى بين عبادته وحده وبين بر الوالدين كقوله تعالى : وقضى ربك الا تعبدوا الا إياه وبالولدين إحسانا " الإسراء : 23 ) وجاء هذا الاقتران لبيان سمو منزلة الوالدين

وبعد ان أوصى لقمان بالوالدين يخص أمه ببيان ما تكابده وتعانيه من المشاق والمتاعب في أثناء الحمل بحث يتزايد ضعفها يوماً بعد يوم وبعد الولادة لا يزول ويتجلى هذا العناء وتلك المشقة بل تدخل بولدها في فترة الحضانة عامين كاملين ايضاً من العناء والتعب النفسي والبدني وقد لخص لقمان هاتين المرحلتين برغم ما يعانيه الاب والام من التعب والمشقة لأجل ولدهما حتى الموت لأنهما يصل فيها العناء والمشقة بالالم اقصى ما يكون ويكون الولد فيهما اضعف ما يكون يخصهما بالذكر لاستعطاف الولد واسترقاقه ومخاطبة احساسه ومشاعره فيكون مع ذلك الوعظ ابلغ وأجدى لدى الصبي

ويأخذ من هذا الاسلوب ضرورة الاخذ به في مخاطبة الشباب ، لما يحدثه هذا الاسلوب لديهم من نتائج مثمرة فالشاب وخاصة المراهق تؤثر فيه الانفعالات اكثر من الاوامر حتى ولو كانت مصحوبة بالدليل والحجة فمن الافضل مخاطبة فلبه لا عقله .

ويستفاد من قوله تعالى : " أن اشكر لي ولوالديك الى المصير ) ان شكر الوالدين المنعمين اللذان جعلهما الله سبباً في الحياة والوجود يأتي بعد شكر من سبب الاسباب وهذا يشعر بترتيب الواجبات والحقوق .

فلقمان في هذه الوصية يدعو ولديه الى اهمية الترابط والتماسك الاجتماعي ويحثه على الصلات الاجتماعية بالاشارة الى اهمها واولاها وهو بر الوالدين .

كما بين له فضلهما ليحثه ويدفعه الى اهمية الاعتراف بالجميل ورده ويبعده عن الجحود والنكران الذي يؤدي البغض والكراهية ، واللذان يؤديان الى العزلة والانقطاع عن الناس ، وهذا ضد طبيعة الانسان .

وبعد أن قرن لقمان بين طاعة الله وطاعة الوالدين وبرهما ، بين له حدود هذه الطاعة قال تعالى " وان جاهداك على ................... " ( لقمان : 15 ) فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق مهما علا قدر هذا المخلوق ولو كان أباً أو أماً في معصية الله فبين له في الآية آداب معاملة الأوين الكافرين ، فالاسلام لا يمنع من مصاحبتهم والاحسان اليهما والقيام عليهما وطاعتهما طالما لن تخرج عن طاعة الله

وفي هذا تأكيد لما ينبغي ان يكون عليه المربي في توجيهاته وارشاداته من الدقة والوضوح وعدم التعميم بل ميدان التربية يقتضي التفصيل والايضاح وخاصة اذا كان المقصود من هم في مرحلة المراهقة والرشد

ويختم لقمان هذه الوصية من ينبغي مصاحبتهم ومعاشرتهم واتباعهم بقوله تعالى : واتبع سبيل من اناب الي " أي المستحقون بالاتباع هم الذين يخصون الله بالعبادة ويخلصون له في الطاعات وعمل الصالحات لأن هؤلاء لا يأمرون الا بمعروف ولا ينهون الا عن منكر ، ففي اتباعهم الفوز بالدارين وهذا هو هدف التربية القرآنية .

ويعزى لقمان بهذا التوجيه الى خطورة الصداقة والاتباع بالنسبة لهذه المرحلة العمرية من حياة الأولاد فالمراهق بخروجه من مرحلة الطفوله وما فيها من اتباع واعتماد شبه كلي على المربين الى مرحلة الرشد والانخراط في الاعمال والاعتماد على النفس فهو يحاول التحرر من قيود التي يفرضها عليه الكبار فينخرط في جماعة الرفاق فيتبع ما تمليه على الجماعة من قيم ومعايير للحكم على السلوك .

ومن هنا يجب على المربين أن يغرسوا ويبثوا في أذهان وقلوب اولادهم معايير الحكم على الاصدقاء واختيارهم حى لا ينخرطوا في جماعة فاسدة فيحصدوا ما زرع المربين من اسس ومبادئ تربوية .

الوصية الثالثة :

قال تعالى : " يا بني إنها .... " ( لقمان : 16 ) بعد أن خاطب لقمان وجدان ابنه في الوصية السابقة ، يستكمل هذا الخطاب في هذه الوصية ، فيببعث في نفسه الوازع على مراقبة حدود الله والوقوف عند زواجره والتزام اوامره بغض النظر عن وجود الرقابة الخارجية من افراد وقوانين وسلطات وغير ذلك ، ومن الثابت عملياً انه لا نجاح لأي نظام رقابي لا يرعى تنمية رقابة الذات ، فمع وجود القوانين واللوائح تحدث الجرائم منها عما يكشف ويفتضح أمرها ومنها ما تظل مستورة لا يعلم بها الا الله ، ناهيك عن جرائم العمل من تكاسل ورشوة وغيره فلكل فرد خلوات وانفرادات مع نفسه يستطيع من خلالها فرق الحدود والقوانين بحيث لا يردعه الا استحضار رقابة الله له .

ويجب ان يثبت هذا الوازع منذ الطفولة ويهتم بتنمية وتوضيح معانيه والتصريح به في سن المراهقة ذاك الطور الوجداني وهذا ما فعلوه ذاك الرجل الحكيم لقمان .

الوصية الرابعة :

قال تعالى : " يا بني أقم الصلاة ......... " ( لقمان : 17 ) يوجه لقمان ابنه في هذه الوصية الى أداء العبادات ، وعمل الطاعات ، واختص الصلاة دون سائر العبادات ، لأن الصلاة هي العبادة الجامعة لكل انواع العبادات والطاعات من صوم وحج واحسان ، وغيره ، فالمصلي يقصد بيتاً من بيوت الله ليؤدي فيه الصلاة كما يمتنع عن الطعام والشراب أثنائها وما يفعله من حركات يزكي بها عن نفسه فضلاً عن أهميتها حيث لم يفرضها الله على الأرض كغيرها من العبادات وانما فرضت في السماء بلا واسطة بين الله وبين المصطفى صلى الله عليه وسلم فضلاً عن كونها العبادة التي لا عذر في تركها فضلاً عن كونها أكثر العبادات أدائاً فهي تقام في شريعة الاسلام خمس مرات في اليوم والليلة باستثناء النوافل ، لذا اختصها لقمان بالذكر .

وفي توجيه لقمان لابنه باقامة الصلاة اصلاحاً لنفسه وتهذيباً لأخلاقياته فالمصلي يشعر باراحة والطمأنينية من جراء الخشوع والسكون المصاحب لها فضلاً عن أن تعاقب الصلوات الواحدة تلو الأخرى تنمية للرقابة وترسيخاً لها التي سبقت الوصية بها ، كما ان المصلي لا يستطيع الشيطان ان يستحوذ عليه لأنه يجدد العهد مع الله في كل صلاة من استعاذة واستغفار أضف الى ذلك ما تحدثه صلاة الجماعة من ترابط وتماسك اجتماعي فضلاً عن تكوين علاقة اجتماعية قائمة على الاخوة الايمانية لا تشوبها شائبة من شوائب الدنيا ومصالحها ولو فتحنا في الكلام عن فوائد الصلاة لاحتاج الامر الى مجلدات لغزارة فوائدها النفسية والبدنية والاجتماعية .

ويعلمنا لقمان في هذه الوصية أسلوباً آخر من أساليب التربية وهو أسلوب التعويد وذلك من خلال أمر الاولاد باقامة العبادات والطاعات قبل سن التكليف ليعتادوها ويألفوها وكذا الحال مع شتى السلوكيات الاسلامية وهذا هو مقصد التربية حيث يقصد منها جعل الأولاد يسلكون السلوكيات المنشودة تلقائياً ، بحيث تصبح عادة لهم .

الوصية الخامسة :

قال تعالى : " وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور " ( لقمان : 17 ) يوجه لقمان في هذه الوصية ابنه الى ما يثبت ويرسخ عنده المعروف ويمنع عنه المنكر من خلال الدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر لأن الانسان اذا ما دعا الى شيء جمع عنه من المعلومات الكثير واستخدام كل مداركه وقدراته في سبيل دعوته اليه ومن ثم فهو أولى الناس بالالتزام بهذا المعروف وهذا هو الحال مع النهي عن المنكر فالناهي عن شيء لا بد انه يعلم مضاره فهو اجدر على اجتنابه ومن ثم فتصبح هذه الوصية بمثابة الدرع الواقي والحصن الحصين الذي يحمي الاولاد من الزيغ والهلاك

فضلاً عن أن لقمان في هذه الوصية أيضاً يوجه ابنه الى تحمل المسئولية الاجتماعية فيوجه الى تحمل هموم مجتمعه وعدم السلبية تجاه ما يحدث في المجتمع من اجتناب المعروف واتيان المنكر فلابد للملتزمين من دور في الاصلاح والا فان افساد الاجتماعي بمعزل عن مجتمعه وكما يقول الله تبارك وتعالى : " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب " ( الأنفال : 25 )

وكما عهدنا على ذلك الرجل الحكيم من الدقة والوضح في وصاياه فها هو بعد أن وجه ابنه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتركه بدون ان يذكر له الوسيلة التي تعينه على أداء هذه الوصية وهي تتمثل في الصبر لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من نعض الناس أو أذى من بعض الناس أيضاً فاذا لم يلتزم بالصبر فانه تقرب الى ان يتركة ويعزز لقمان قيمة الصبر لابنه بقوله " ان ذلك لمن عزم الامور أي من الامور التي عزمها الله وأوجبها

وبه يدلنا لقمان على اسلوب ثالث من اساليب التربية وهو اسلوب التعزيز وهو تقوية التوجيه بأن يضيف المربي الى فعل الولد ا والى التوجيه والارشاد ما يعزز ويقوي من اكتساب هذا التوجيه والتعود عليه .

الوصية السادسة :

قال تعالى : " ولا تصعر خدك للناس ....... " بعد أن أنهى لقمان وصاياه الأصولية والتعبدية انتقل الى لون آخر من ألوان التربية وهو الآداب في معاملة الناس ، أ, فن العلاقات العامة كما يسمى الآن .

والصعر داء يصيب الابل فيلوي عنقه فاستعار هذا الاسلوب كناية عن التعالى والاستكبار على الناس ليرفع ذلك الحكيم في نفس ابنه ان هذا السلوك الشاذ هو بمثابة داء نفسي يصيب الانسان مثل داء الصعر الذي يصيب الابل وفي استخدامه لهذا الاسلوب في النهي عن الكبر أبلغ في التنفير منه والزجر عليه من استخدامه للنهي بدونه فهو يخاطب وجدان ابنه كما أسلفنا فيشعره بأن هذا السلوك هو سلوك حيواني ولا يسلكه الحيوان الا اذا كان به مرض ، فيحذر بالانسان المكرم المعافي الا يسلك مثل هذا السلوك الذي تنفر منه الطباع .

وهذا أسلوب رابع من أساليب التربية التي يعلمها لنا الله الى يوم القيامة على لسان ذلك الحكيم فأسلوب التشبيه أسلوب تربوي فعال لأنه يجمع بين مخاطبة العقول النفوس وهو عبارة عن توجيه للخير او نهي عن الشر في أسلوب ضمني غير مباشر ولذلك فهو آكد وأبلغ في الاستخدام التربوي من كثير من الاساليب المباشرة

والكبر داء نفسي واجتماعي يشعر معه صاحبه بأنه أفضل من غيره فيسلك ما يعبر عن هذا الشعور فيتأذي منه الناس لذلك فهو أسلوب يثير الكراهية والبغضاء ويحمل النفوس على الحقد فيقتل معالم الاخوة الاجتماعية ويصنع بدلاً من المحبة والألفة والمودة بين أفراد المجتمع والكراهية والحقد فتتفكك بذلك أواصر العلاقات الاجتماعية وتزول هيبة المجتمع ووحدته من كثرة الخلافات والانشقاقات الاجتماعية التي يجلبها هذا المرض في حال تفشيه .

الوصية السابعة :

قال الله تعالى : " ولا تمش في الارض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخوراً " ( لقمان : 18 ) نظراً لخطورة التكبر والاستعلاء ومضاره الواضحة على الفرد والمجتمع فقد كرر لقمان النهي عنه لابنه ولكن في اسلوب مغاير للسابق لعدم اثارة الملل والرتابة وهو في ذلك يعبر بقوله " ولا تمش في الأرض " مع أن المشي لا يكون الا في الارض فقصد من المشي مع الناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، أي لا تمش مع الناس وانت بينهم مختلاً مزهواً فخوراً بنفسك بل ألف جانبك وتواضع لهم فهو يشعره بهذا الأسلوب أنه مساو لجميع الناس الذين يمشون على الأرض

وبعد أن أنهى لقمان وصيته السابعة اتبع وصيته بأسلوب حكيم في شدة التنفير وحيث ان سلوك الكبر والفخر على الناس لا يرضاه الله ولا يحبه وبالتالي لا يحب فاعله ، فهذا الأسلوب جاء تأكيداً وتعزيزاً للوصيتين السابقتين ، بما لا يدع مجالاً للوقوع في هذا الداء العضال

ومنه نتعلم أن النهي عن السلوك الشائع أو الأمر بالسلوك الغائب ينبغي أن يكرر ويؤكد ولكن بأسلوب لا يبعث على الملل لأن التكرار يؤكد المعني ويرسخه ولكن مع المغايرة في الاسلوب حتى لا يكون باعثاً على الرتابة والملل فتضيع ثمرته

وهذا التكرار هو الاسلوب الرابع من اساليب التربية التي استخدمها لقمان الحكيم مع ابنه

الوصية الثامنة :

( قال تعالى : " واقصد في مشيك ......... " ( لقمان : 19 ) بعد أن انتهى لقمان من نهي ابنه عن الأمور التي تجلب الكره والبغضاء بين الناس شرع في توجيه الى ما يبعث على الاحترام والألفة وبعد أن بين له آداب معاملة الناس أتبعه ببيان آدابه الخاصة به والقصد هو الاعتدال والتوسط في الامور كلها فهذه دعوة للاعتدال في كافة الامور من افراط ولا تفريط ، فحياة الانسان على ظهر الأرض قائمة على الاقتصاد والاعتدال في كل مناحي الحياة ، في الطعام والشراب ، في النفقة والكساء ، في معاشرة الخلق ، في النوم واليقظة ، في السعي والعمل ، ..... في كل شيء ، ولكن لقمان خص المشي بالاعتدال وربما قصد منه ان المشي مجتمع فيه أغلب شئون الحياة ، فمن أكثر الطعام وأقل من النوم لا يستطيع الاعتدال في المشي وهكذا ، ومن أبطأ في المشي عرض نفسه للفتن ، فربما وقع نظره على محرم ، فالطرقات لا تخلو من الفتن ، كما ان الاسراع ربما يؤدي الى الهلكة ، فالاقتصاد أولى ، وربما خص لقمان المشي بالذكر لانه أظهر ما يلوح عن الفرد .

الوصية الأخيرة :

قال تعالى : " واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ( لقمان : 19 ) هذه الوصية هي حث على الثقة بالنفس وتنفير من سوء الادب فالصوت المرتفع دليل على ضعف حجة صاحبه فهو يحاول ان يفحم المخاطب ويحمله على رأيه بعلو الصوت بدلاً من الحجة والاقناع لذلك فهو شاك فيما يقول لا يقدر شخصيته يشعر مع ذلك بالنقص ليحاول ان يستعيض عن ذلك بالحدة والغلظة في القول لذلك فهي وصية ضمنية بمثابة دعوة وحث على التثبت والتروي قبل الكلام ، والوثوق بالنفس وتقدير الذات

وفي قوله " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " لقمان بهذه الجملة يزود ابنه بالمعلومات في اثناء نشغاله بنصحه وارشادة فجمع بها بين التنفير والتحذير من ارتفاع الصوت وبين اكساب المعلومات وتوسيع مدارك العقل

وما فعله لقمان ينادى به التربويين اليوم فهم ينهون على من يبنهون على ان المربي الجيد هو الذي يجمع بين التجيه والارشاد وبين التزويد بالمعلومات والبيانات .